

مقاربة تداولية لمقاصد الخطاب القرآني في سورة البقرة من خلال كتاب التحرير والتنوير لابن عاشور

A pragmatic approach to the intentionalities of Quranic discourse
in Surah Al-Baqarah through al tahrir wa al tanwir by Ibn Ashour

فاطمة الزهراء زيد الخير¹ مسعود صحراوي²

¹ مخبر اللسانيات التداولية وتحليل الخطاب الأدبي، جامعة عمار ثلجي، الأغواط، الجزائر

f.zidelkhir@ens-lagh.dz

² مخبر اللسانيات التداولية وتحليل الخطاب الأدبي، جامعة عمار ثلجي، الأغواط، الجزائر

hmmaboutaleb56@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2024/09/10 تاريخ القبول: 2024/10/07 تاريخ النشر: 2025/01/31

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إثبات جدارة التراث اللغوي العربي، وراثته المنهجية الذي يقارب المناهج المعرفية الغربية، وذلك من خلال مقارنة المنهج التداولي السياقي لابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، وتوظيفه لمجموعة من الإجراءات التداولية، والوظيفية كاستنباط المقاصد، وتحلية المعاني، وتتبع الاستراتيجيات، وتطبيقها على سورة البقرة نموذجاً.

وخلصت الدراسة إلى تبيين عمل ابن عاشور التفسيري، واستثمار أدواته المعرفية، ومقارباته التداولية ضمن مشروع تشكيل نظرية لسانية تداولية عربية تستلهم التراث، وتوظف الدراسات اللغوية الحديثة.

الكلمات المفتاحية: التداولية؛ الخطاب القرآني؛ السياق؛ المقاصد؛ تفسير ابن عاشور.

Abstract:

This study aims to demonstrate the merit and methodological richness of the Arabic linguistic heritage, which parallels Western cognitive approaches. It does so through examining Ibn Ashur's pragmatic and contextual method in his Tafsir (Al-Tahrir wa Al-Tanwir), highlighting his use of pragmatic and functional procedures such as deriving purposes, clarifying meanings, tracing strategies, and applying them to Surah Al-Baqarah as a model. The study concludes by valuing Ibn Ashur's interpretative work, utilizing his cognitive tools and pragmatic approaches as part of a project to form an Arabic pragmatic linguistic theory that draws inspiration from heritage and employs modern linguistic studies.

Keywords: Pragmatic; Quranic Discourse; the Context; Intentionalities; Tafsir Ibn Ashour.

مقدمة:

يعتبر النص القرآني مادة لغوية غنية بالأساليب الخطابية والاستعمالات التعبيرية التي تشد الدارسين، وتحثهم على الارتشاف من قبسه، ويعتبر التفسير أحد أهم روافد المعرفة اللغوية في تراثنا، حيث استقى مادته من كتاب الله عز وجل، وكانت الغاية عند المفسرين فهم مراد الشارع وإيصال مقاصده إلى المخاطبين، وسيلتهم في ذلك توظيف المعارف اللغوية التواصلية الفكرية.

وقد ترّبع علم التفسير على قمة هرم المنجزات المعرفية العربية في هذا التراث، وكان المتصدي لهذا المجال من المكنة والرسوخ في العلم، بحيث لا يدع فنا أو علما إلا يطلع عليه أو يبرع في أصوله، ومسائله حتى يتأتى له التصدي لكلام الله المنزل إلى الناس كافة بما وصل إليه الناس من علم، وصناعة وكشوفات من شأنها أن تفتح أبواب الفهم لمقاصد الشارع.

وبالتالي؛ فإن هذه المقالة تسلط الضوء على المنهج الذي اتبعه ابن عاشور في دراسة لغة القرآن من وجهة نظر تداولية، وتحاول إثبات مقارباته التفسيرية في كثير من طروحاته وتحليلاته، وكذا معالجاته الوظيفية للنص القرآني، والتي تأخذ بالأبعاد التداولية اللغوية، وغير اللغوية، أو ما يسمى

بالسياق ومتعلقاته، كما تصبو إلى تحقيق نتائج تقترب من العلمية في مسألة إعادة قراءة التراث، والاستفادة منه في إعادة صياغة نظرية لسانية عربية أصيلة وحديثة.

إشكالية الدراسة: تنطلق الدراسة من مجموعة إشكاليات تحاول مقاربتها وهي:

هل بالإمكان تطبيق آليات المنهج التداولي على مدونة التفسير القرآني القديم؟ وبشكل آخر؛ هل يمكن أن نجد ملامح وتجليات المنهج التداولي في ثنايا الكتب التفسيرية القديمة؟، وهل يمكن أن نجد مفاهيم مشابهة لما توصل إليه الغرب في هذا المضمار؟ وهل ستضمن مدونة التحرير والتنوير مفاهيم وظيفية تداولية أصيلة؟، وكيف استثمرت في مقاربة ابن عاشور؟ وكيف عالج مفهوم المقاصد في الخطاب القرآني؟ وكيف وظف السياق في مقارنته التداولية من أجل قراءة أكثر فاعلية؟

أهداف البحث:

تهدف الدراسة إلى تحقيق بعض الغايات العلمية والتحقق منها، على سبيل المقاربة، والمقارنة، أو الاستحضار لبعض المفاهيم اللغوية العربية، والتداولية الغربية، ومن ذلك:

— إبراز نضارة التراث اللغوي العربي ونفاسة ما يحويه، ورفع الضيم الحاصل له بإعادة الاعتبار له، وإعطائه ما يستحق من الاهتمام والتقدير.

— التنويه بجهود بعض المفسرين الذين تخطّوا أسوار البحث في منظومة القواعد الصورية؛ إلى ما يتّصل بالإفادة والغرض، وربط ذلك كلّه بالوظائف التداولية.

— الاستفادة من إيجاد هذا التقارب المنهجي بين المنظومتين اللسانييتين الغربية والعربية.

— التنبيه على أهمية تفسير ابن عاشور، وأهمّ المفاهيم الوظيفية التداولية المدججة في عملية القراءة والتحليل.

المنهج المتبع:

تم اختيار المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي في إطار الرؤية التداولية كمقياس لاختبار فاعلية التراث اللغوي العربي؛ هذا المنهج -الغربي في نشأته- هو من آخر ما توصل إليه العقل الغربي فيما يخص الدراسة اللغوية، ويعتبر من أكمل المناهج وأكثرها شموليّة، واستيعاباً لعناصر التواصل اللغوي هذا فضلاً على أنّه خلاصة لجملة من المعارف، والمناهج اللغوية وغير اللغوية، وهو ما لم يتسنّ لغيرها من المناهج قبل ذلك، هذا من جهة؛ أمّا من جهة أخرى، وهو الأهم؛ فهو وجود تقارب

كبير بين ما توصل إليه الغرب في هذا المضمار، وبين ما قرّره علمائنا القدامى من حقائق وسبقوهم إليها وهذا ما يجعلنا نراهن على أصالة منهج القدماء، وتفوقهم زمنيا وحضاريا.

1. ابن عاشور وكتابه التحرير والتنوير:

ابن عاشور من بيت آل عاشور المولود سنة 1879 بضاحية المرسى من أهواز تونس الشمالية، وجده لأبيه هو الشيخ مُحمَّد الطاهر بين عاشور قاضي الحضرة التونسية، وصاحب المؤلفات القيمة، وجده لأمه العلامة الوزير الشيخ مُحمَّد العزيز بوعتور الذي أشرف على رعايته، فبدأ تعليمه في الكتاب والتحق بجامعة الزيتونة لينال فيها شهادة التطويع سنة 1899م، وقد عاصر بن عاشور مرحلتين من عمره الأولى فترة الاستعمار الفرنسي، وما لقي الشعب من ويلات الاستلاب، والثانية مرحلة العهد البورقيبي إلى غاية وفاته هو سنة 1973 م رحمه الله.¹

ويعتبر كتابه في التفسير التحرير والتنوير من أهم المصادر التراثية اللغوية العربية المتأخرة فقد مثل هذا الكتاب عصارة جهود المتقدمين مع إضافة ما تيسر من الاجتهاد وفق ما يتناسب مع المعطيات الفكرية والثقافية آنذاك، وقد تشرب صاحب الكتاب من ثقافة السابقين واجتهاداتهم، وأتيح له النظر فيها ومقارنتها، ومقاربتها والرد عليها، ومعارضتها وكذا الإضافة إليها، وما يعيننا من كتاب ابن عاشور في التفسير ليس آراؤه الاعتقادية أو الفلسفية أو مرجعيته الدينية والفكرية؛ بقدر ما يهمننا الجانب التداولي اللغوي، وقدرته على سبر أغوار النص القرآني.

2. مفهوم التفسير:

يعتبر التفسير أحد العلوم اللسانية في تراث الحضارة العربية الإسلامية، وذلك لارتباط وصفه بالقرآن الكريم، هذا الكتاب الإلهي الذي لم يأت به الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ولقد حظي علم التفسير عند العرب باهتمام بالغ سواء من ناحية المتصدي له، أو من ناحية ما يحشر له من معارف، ومؤهلات تسمح بالخوض فيه وفق شروط، والتزامات تحد من الشطط، أو القول بالهوى، فهو "يحتاج -أي القرآن- إلى قراءة متكاملة ونظرة شاملة لمقاصده، وطرق تأويله وتفسيره، ولا يمكن النظر إليه على أنه مجرد أوعية لغوية لفظية محملة بدلالات لغوية فحسب؛ وإنما لها أبعاد نفسية، وأخرى فكرية أعمق من ذلك، وأجدر بالملاحظة، والتتبع والبحث، فلا يمكن فهم

الخطاب القرآني، واستنباط الأحكام منه إلا في ظل تكامل، وإلمام بالأسرار اللغوية، والقيم الثقافية، والمفاهيم العلمية والفكرية، والممارسات الاجتماعية، والخبرات الإنسانية".²

وابن عاشور تحدّث عن معنى التفسير لغة، وهو ما لم يخرج فيه عن معنى المعاجم واشتقاق المادة، وسبب مجيئها على وزن (فَعَّل)³، أما اصطلاحاً فقد ذكر في مقدمته الأولى تعريفه من وجهة نظره فقال: "وهو اسم العلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد من منها باختصار أو توسع، والمناسبة بين المعنى الأصلي والمعنى المنقول إليه لا يحتاج إلى تطوير موضوع التفسير ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه، وما يستنبط منه".⁴

3. مفهوم المقاصد القرآنية من منظور المفسرين:

اهتدى عدد من المفسرين لظهور نوع جديد من التفسير، يسمى التفسير المقاصدي، الذي يعني بـ "الكشف عن الغايات، والمعاني التي يدور حولها القرآن الكريم كلياً، أو جزئياً مع بيان كيفية الإفادة منها في تحقيق مصلحة العباد".⁵

فالمقاصد جمع مقصد، وهي من جذر قصد، والمقاصد مضافة إلى القرآن (وهي غير مقاصد الشريعة لأن الأولى أعم من الثانية)، فهي: "الثمرات العامة والأهداف الكلية والغايات الجامعة التي تدل عليها جملة متعددة من الآيات القرآنية".⁶

ومعلوم أن هذا المصطلح تجاذبته عدة مجالات، واتفق جلّها على أن يرتبط بالمعنى، فعلماء اللغة يشترطون القصد في الدلالة، فهي عندهم فهم المقصود دون فهم المعنى مطلقاً، وذلك عكس ما يراه المناطقة؛ الذين يرون أن الدلالة تتوقف على الإرادة مطلقاً، مطابقة كانت أم تضيّناً.⁷

وقد أشار أحد الباحثين إلى هذه القضية بقوله: "يعدّ التفسير المقاصدي تفسيراً جديداً بالرغم من أن تاريخ المقاصد قديم قدم التشريع، واستعمال لفظ المقاصد، ومعانيه مشهور منذ القدم، إلّا أن إدخال المقاصد في التفسير ظهر في القرون المتأخرة ابتداء من عصر مُجَدَّ عبده، وتلميذه رشيد رضا، ثم ابن عاشور، وانتهاء بسيد قطب، وسعيد حوى، وغيرهم ممّن كتب في التفسير المعاصر، غير أن هؤلاء لم يوجد في تفسيرهم التعريف الواضح لهذا النوع من التفسير؛ على الرغم من أن منهجيتهم واضحة، وطريقتهم في تناول المقاصد لا لبس فيها".⁸

ولقد تناول الدارسون مدى أهمية فكرة المقاصد في تناول تفسير القرآن، فعَدّوا فوائدها فيما يلي⁹:

— الإحاطة بالمقاصد العامة للتنزيل؛ فهي قاعدة متينة من قواعد التدبر تعصم من شطط التأويل وزيف الفهم.

— فهم مراد الوحي في العقائد والأخلاق، والأحكام.

— صرف جهود التفسير في وجوه العلم المشروع، والبحث المثمر الذي يجعل المقاصد غاية، ويتحاشى عن الإسراف في حل الألفاظ، وإعراب الجمل، والغوص في النكت البلاغية، والتوغل في التوجيهات العلمية.

— وضع الأحكام القرآنية في سياقها العام، ونصائها الصحيح، وحسم مادة التلاعب بالمضمون القرآني مفردة وجملة وسياقا، فمقاصد القرآن ترسخ المنهجية العلمية.

— صياغة تصور شامل عن مقاصد التنزيل الكلية لكي تكون مرجعا ضابطا لفهم القرآن كله، وذلك أن من أصول التدبر إرجاع مقاصد السور، والمقاطع، والآيات إلى المقاصد الكلية، وإرجاع الأغراض الكبرى إلى القرآن بحثا عن الترابط في سياق جامع ناظم تشد إليه الروابط القرآنية.

وقد أدرج جلّ علمائنا القدامى هذا المفهوم ضمن دراستهم لمفاهيم النص، والخطاب، ونوّهوا بهذا المفهوم، ومنهم من صرّح بذلك باعتباره أحد القرائن الكبرى في تحديد المعنى، فهو الفائدة التي يبتغيها المتكلم من الخطاب، ولن يكون هناك نص، أو خطاب دون قصد، وهذا قريب ممّا يسمّيه التداوليون المعاصرون؛ القصدية في كلام المتكلم، خصوصا ما قرّره الفيلسوفان المعاصران: جون أوستن وتلميذه سيرل في نظرية الأفعال الكلامية.¹⁰

فابن عاشور كان أحد رواد التّأصيل لهذه المقاصد في القرآن التي جمعها في ثلاثة أصول: صلاح الأحوال الفردية، والجماعية والعمرانية؛ إذ يتطلب صلاح الفرد تهذيب النفس وتركيتها، فيدخل فيه الاعتقاد، والعبادات، والأخلاق، ويتطلّب صلاح المجتمع ضبط تصرّف الناس في معاملاتهم، أمّا الصلاح العمراني؛ فيتطلب حفظ نظام الجماعات والأقاليم.

وقد قام ابن عاشور: بتفريع الأصول إلى ثمانية مقاصد ذكرها في أحد مقدماته في التفسير، تمثّلت في: إصلاح العقيدة، التشريع سواء للأحكام الخاصة أو العامة، تهذيب الأخلاق، إدارة شؤون الأمة، القصص وأخبار الأمم، التعليم بما يناسب حال المخاطبين، المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير وأخيرا الإعجاز القرآني.¹¹

يمكن القول أنّ ابن عاشور أدرك على غرار سابقه من بعض المفسرين (سيد قطب، مُحمّد رشيد رضا، علال الفاسي، مُحمّد الغزالي، طه العلواني، جاسر عودة)، أنّ معرفة مقاصد القرآن العامة تؤدي إلى معرفة أغراض السور ومدلولاتها الجزئية، وأنها كلّها تنتظم في إطار يوحدتها ويجمع شملها، فلا يزيغ المفسر عن هذا النظام الملتحم، أو نزل به القدم إلى ما لا يرتضى من تأويل فاسد أو غير مقصود.¹²

ولا شك أنّ استعراض مفهومي التفسير، والمقاصد القرآنية يستدعي استعراضنا لأهمّ المفاهيم اللسانية من أجل مقارنة حديثة لأدوات المفسرين، ومنهجهم، ومنهج ابن عاشور، وأبعاده التداولية، وفيما يلي عرض لهذه المصطلحات، وإجراءاتها.

4. تعريف التداولية:

يعدّ المنهج التداولي أقرب المناهج روحا إلى مجال التفسير كونهما يلتقيان في نقطة تشابه تتمثل في الاعتداد بكلّ حيثيات النص للوصول إلى المعنى، أو ما يسمى بالسياق العام، وما يتعلق بالنص فهي: " ذلك الاتجاه الذي يدرس كيفية استخدام الناس الأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم، كما تعني من جهة أخرى بكيفية تأويلهم تلك الخطابات والأحاديث ".¹³

أو هي: " دراسة استخدام اللغة في شتى السياقات، والمواقف الواقعية أي تداولها عمليا، وعلاقة ذلك بمن يستخدمها، وهذا يعني أن السياق جاء بعدا جوهريا في التداولية، ودخل في تعريفها".¹⁴

ويمكن القول أنّ للتداولية مفاهيم مشتركة تتمثل في الآتي:¹⁵

- دراسة استعمال اللغة: أي كيفية استعمالها في الاتصال، ومبادئ استعمال اللغة أو خصائصها الاستعمالية، والبحث عن نظرية ملائمة تتعلق بالاستعمال التواصلية للغة.

● علاقة اللغة بالسياق: إذ تتناول الواقع الذي تستعمل فيه اللغة والبعد الاجتماعي لها، والتركيز على مستعملي اللغة، وسياق استعمالها بدلا من التركيز على المرجع، أو الحقيقة، وقواعد النحو.

وبالتالي؛ فإنّ مهمة التداولية تتلخص في نقاط منها:¹⁶

- تقديم اشتراطات النجاح لعملية القول، وبيان الوجه الذي يمكن به أن تكون مثل هذه العملية عنصرا أساسيا في سلسلة التفاعل.
- صياغة المبادئ الأساسية التي ينبغي أن تكفل نجاح المقولة.
- كيفية ربط اشتراطات نجاح المقولة، وأسس التفاعل الإبلأغي ببنية الخطاب، وتفسيره.
- دراسة دور عناصر التخاطب (المتكلم - المخاطب - الخطاب - السياق) في التأثير على المقولة اللغوية من حيث التفسير والتأويل.

وبالتالي؛ فموضوع التداولية قريب من موضوع التفسير، ومنهجه، وغاياته العلمية، وهناك خيط رفيع يجمع بينهما قد يكون مفهوم القصدية، ومفهوم السياق، وكذلك الاستراتيجيات، وعناصر الخطاب التي تسلط هذه الدراسة الضوء عليها، وذلك لاهتمام الدراسات التداولية بقصدية النص، أضف إلى ذلك أن نظرية الأفعال الكلامية تعتمد منهجين أساسيين هما: عرقية الاستعمال، وقصدية المتكلم، الذي لا يتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد.¹⁷

5. نظرية الأفعال الكلامية:

تعتبر الأفعال الكلامية مفهوما تداوليا خالصا، ويعد السمة الفارقة بين التداولية وغيرها، وحجر الزاوية في البحوث اللسانية، وفحواه أنه: "كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وفضلا عن ذلك، يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل بأفعال قولية إلى تحقيق أغراض إنجازية كالطلب، والأمر والوعد، والوعيد... إلخ، وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول)، ومن ثم فهو فعل يطمع إلى أن يكون فعلا ذا تأثير في المخاطب اجتماعيا أو مؤسستيا، ومن ثم إنجاز شيء ما".¹⁸

ولابد من الإشارة إلى أن المقصود بالفعل الكلامي الإنجازي " الذي تنطلق منه النظرية هو الحدث (Act)، وليس الفعل (Verb) الذي يعد مؤشرا، أو وسيلة لغوية لإنجاز الحدث، ومن هنا جاءت تسمية الفعل الكلامي (Speech Act)".¹⁹

ويعدّ صاحب السبق في هذا (جون أوسين) الذي استنتج بأن وظيفة اللغة ليس مجرد إيصال المعلومات، أو وصف العالم أو التعبير عن الفكر، " وإنما هي مؤسسة تتكفل بتحويل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقية إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية، فحينما يقول القاضي أو المدير/ (فتحت الجلسة)، يكون قد أنجز فعلا اجتماعيا، وهو فتح الجلسة".²⁰

انطلق أوستين من ملاحظة مفادها أن كثيرا من الملفوظات الخبرية التي تتشابه في التركيب اللغوي مع الملفوظات التي تصف الواقع، ويحكم عليها بالصدق أو الكذب، هذه الملفوظات لا تصف الواقع، ولا يحكم عليها بالصدق، والكذب بل تشير إلى إنجاز عمل، أو فعل يتطابق مع الملفوظ فالقول هو الفعل أو جزء منه، وقد انتهى إلى التفريق بين هذين النوعين المتشابهين ظاهريا من الملفوظات.²¹

وعلى هذا الأساس، قام بتصنيف الأفعال الكلامية إلى²²:

- فعل القول (الفعل اللغوي): وهو مجموعة الألفاظ والجمل المفيدة التي يتلفظ بها المتكلم ويراعي فيها القواعد الصوتية والصرفية والنحوية.
- الفعل المتضمن في القول (الإنجازي الأدائي): وهو المقصود من النظرية، ويعرّف بأنه عمل ينجز بقول ما، فإذا كان الأول مجرد قول شيء؛ فإنّ الثاني قيام بفعل ضمن قول شيء.
- الفعل الناتج عن القول (التأثيري): وهو الفعل الذي يتسبب في نشوء آثار في المشاعر والفكر لدى المخاطب، ويعدّ الفعل اللغوي من اختصاص الاتجاه البنيوي والتوليدي، وأما النوعان الآخران فهما من اختصاص التداولية.

ولقد أولى أوستين ومَن بعده عنايتهم بالفعل المتضمن في القول، وعدّوه جوهر الدراسة التداولية كما وضع أيضا مجموعة من الشروط التي تضبط، وتميز الفعل الإنجازي هي:²³

- أن يكون الفعل بطبيعته المعجمية منتما إلى مجموعة الإنجازات.
- أن يكون زمنه الحال أو الاستقبال، وأن يسند إلى ضمير المتكلم أو المخاطب.

أما سيرل فقد صيّر الفعل الكلامي إلى:

- فعل قضوي يعبر عن قضية.
 - فعل متضمن في القول يعبر عن قوة إنجازية معينة.
 - فعل ناتج عن القول يدل على ترك آثار في الواقع.
- وبعد سنوات من الدراسة والتمحيص، والانتقاد لمنهج أوستين استقر تصور سيرل على هذا التقسيم: التقريريات_ الوعديات_ الأمرات_ الإيقاعات_ البوحيات.²⁴

6. مفهوم السياق في الدراسات الغربية الحديثة:

يعرّف السياق بأنه: "مجموع الظروف والملابسات والأحوال المرافقة للخطاب، أو التواصل، ويشمل جميع القرائن الحالية التي تكتنف العملية التواصلية".²⁵

ويفرّع السياق من هذا المفهوم إلى مجموع الاعتقادات، والقيم التي يشترك فيها المتخاطبون، والمعارف التاريخية والاجتماعية والفكرية، والأعراف السائدة في المجتمع، وكل ما له صلة بالثقافة الاجتماعية، والدينية والسياسية... إلخ، كما يتضمّن السياق مجموع ملابسات الموقف، والتي تتمثل في:²⁶

- الوضع الذي عليه المتحدثون.
 - قرائن الحال.
 - المكان والزمان والأشياء والأحداث.
 - العلاقة بين طرفي الخطاب.
- وهذه الملابسات تكون حالية، أي حال وقوع الحدث التّواصليّ وداخله، أمّا المعارف المسبقة فهي خلفية سابقة لحدوث الفعل التّواصلي، إلّا أنّها مهمّة في تحليلها، وتأتي مساعدات الكلام في الأخير، لتجعل من الحدث التّواصلي صوتا وصورة تعملان معا في تحديد المقاصد، وتوجيه الأغراض، وتتمثّل هذه المساعدات في تغيّرات الوجه، الإشارة باليد، إيماءات الرأس، حركات الجسم وغيرها. ومن جهة أخرى؛ فإنّ المتكلّم أيضا له دورٌ في تفعيل اللّغة، ونقلها من وسطها الافتراضي إلى التحقيق الفعلي لها في أرض الواقع، أي أنّها تتحول من كينونتها الصّورية إلى كينونتها التّداولية.²⁷

ويعتبر دور المخاطب مكملاً لعملية التواصل، "إذ لا يقتصر دوره على التلقي السلبي؛ بل قد يتجاوزه إلى صياغة الخطاب بصيغة خاصة، قد تؤدي إلى تشكيله من جديد وفق أحوال المتكلم الذاتية، وقد تزداد إيجابية المخاطب، فتتجاوز التأويل؛ وذلك حين يكمل النص في الخطاب حين يصل إليه ناقصاً، بسبب ظروف سماعية أو كتابية سيئة مستعينا بالاستعمال الذي اكتسبه من تجاربه السابقة مثل تقدير المحذوف اعتماداً على قصد المتكلم، وقد يكون للقارئ الخارجية الدور الأهم في حذف والتقدير".²⁸

7. المقاربة التداولية لابن عاشور في تفسيره المقاصدي، ومنطلقاته المعرفية:

استند ابن عاشور في تفسيره على مجموعة من المعارف القبلية، والأسس التداولية التي وظيفها في تفسيره، فالرجل كان صاحب ثقافة لا يستهان بها، "وقد خالف ابن عاشور كثيراً من المفسرين الذين اقتصرُوا في تفسيرهم على المفردات اللغوية، والتراكيب البلاغية، وأعرضوا عن بيان المعاني والدلالات الحاصلة من وضعية التركيب في الآيات، كما خالف كثيراً من آراء النحويين الذين راحوا بتأويلاتهم، وتقديراتهم يغيرون المعنى الذي يدل عليه ظاهر النص؛ إذا ما خالف قاعدة من القواعد النحوية".²⁹

فجاء بهذا الشكل الذي يعكس رؤية ثابتة، وفكراً نيراً، وانفتاحاً سابقاً لعصره، وتفوقاً قل نظيره.

وقد أخذ من كل هذا بحظّ وافٍ، وقدم راسخة في تخصصات معرفية، ودينية حتى يتمكن من استثمار كل هذا فيما يعينه على الفهم الأشمل والأعمق، وهو يعترف في ذلك بقوله: "إنّ معاني القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة، بعيدة المدى، مترامية الأطراف موزعة على آياته، فالأحكام مبيّنة في آيات الأحكام، والآداب في آياتها، والقصص في مواقعها، وربما اشتملت الآية الواحدة على فئين من ذلك أو أكثر".³⁰

ولقد شرح ابن عاشور طريقته في تناول آيات القرآن بالتحليل والتفسير والتدبر، فكانت مجموعة من الإجراءات التداولية التي تجمع بين دراسة التركيب، والسياق الذي يتواجد فيه، والمعطيات المحيطة بإنشاء هذا التركيب، وهي كالتالي:³¹

- ذكر وجوه الإعجاز.

- ذكر النكت البلاغية.
 - الإشارة إلى أساليب الاستعمال.
 - بيان اتصال الآيات ببعضها.
 - بيان استراتيجيات كل سورة على حدة.
 - بيان معاني المفردات في اللغة العربية بالضبط والتحقيق.
 - استخلاص المقصديات داخل نظم القرآن الكريم.
- انبت دراسته للقرآن من خلال سوره واستراتيجياته الخطابية على تتبّع المعاني العامة، والخاصة داخل سياقاته، ونظمها في سلك يجمع شملها، ويوحد مقصديتها، فكان يشير إليها في مطلع كل سورة من تفسيره إلى أغراضها، وموضوعاتها بالترتيب، ولعل الغاية من وراء ذلك هو وجود المرجعية النظرية التي تؤطر فكر ابن عاشور التفسيري من خلال تبني مجال التفسير المقاصدي.
- نظر ابن عاشور للخطاب القرآني على أنه: "خطاب إلهي معجز، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت، الآية 42)، هذه سمة تجعله متفرداً عن الخطابات البشرية، فهو خطاب متكامل يملك من الأدوات، والآليات التي تجعله رسالة ربانية عالمية تتجاوز الزمان والمكان، وتخطب الناس جميعاً على اختلاف مداركهم، ومشاربهم، لا تقف عند حدود جغرافية، أو عرقية، ومن هنا كان حاملاً لوسائل وأساليب متعددة ومتنوعة بحسب تعدد وتنوع البشر في أفكارهم ومعتقداتهم".³²

8. السياق ونظرية المقاصد في التحرير والتنوير لابن عاشور:

أدرك ابن عاشور أثناء خوضه غمار تفسير القرآن أنّ فهم مجمل المعاني لا يكون إلا بفهم المعاني الجزئية في السور، والآيات، والجمل، والمفردات، بل وحتى الحروف، وعلى هذا؛ فإن كل مكوّن لغوي في النص القرآني يتأثر، ويؤثر بما قبله وبعده، وينتظم داخل علاقات صغرى، وكبرى ليشكل وحدة تعمل وفق مقصدية عليا لا تحيد عنها، وقد أشار بعض الدارسين إلى نقطة مهمة؛ وهي الفرق بين المقاصد والمحاور (الموضوعات) والأغراض، أو ما اصطلح على مقابلته بالاستراتيجيات الخطابية:³³

- المقاصد هي الأهداف الكبرى للسورة أو للقرآن، وهي مثل مقاصد الشريعة الكبرى المحصورة في خمسة مقاصد.
- الموضوعات فهي المحاور التي تدور حولها السورة، والتي يتم من خلالها التوصل للمقصد الأصلي من السورة.
- الأغراض أو الاستراتيجيات بالمفهوم اللساني الحديث؛ فيظهر أنه يمكن التعبير بها عن المقاصد، كوسيلة أو موجّه، ومؤشّر، فيتم التوصل بواسطتها للمقصد الأصلي.
- اعتنى ابن عاشور بقضية السياق كونها مرتبطة بالمقاصد الكبرى للنص القرآني، وكانت وسيلته في تتبع مجريات تنوع المقاصد العامة، وقد تنوعت صور السياق عنده من سياق للآية، و سياق للنص، و سياق للسورة، و سياق للخطاب القرآني بالجملة³⁴.
- فسياق الآية** يعني النظر فيما يلي الآية دون الالتفات إلى ما قبلها وما بعدها، وكأنها موضوع قائم بذاته، حتى يتسنى النظر فيما تضمنته من تتابع، واتساق في الكلمات، وما اشتملت عليه من وجوه الإعجاز والإيجاز، و سياق الآيات أو النص؛ يعني النظر إلى مجموعة من الآيات التي تمثل محورا معينا، وتتناول قضية أو موضوعا واحدا، وفي هذه الحال لا يتم الاقتصار على أوله دون آخره أو العكس³⁵.
- وبالنسبة ل**سياق السورة**؛ فيعني النظر إليها كاملة من خلال بيان أغراضها وتحليل سياقاتها، وتحديد مقاطعها، واستخلاص الترجيحات فيها، واستخراج المتشابه منها، وهذا النوع يخدم المقاصد خدمة كبيرة في بيان الأغراض، والسياق العام للسورة.
- أما **سياق القرآن**؛ فيراد به المقاصد الكلية والاستراتيجيات الأساسية، هذا يستلزم نظرا بعيدا، وثاقبا، وشموليا من طرف المفسر³⁶.
- يمكن القول بأن ابن عاشور التزم بفكرة ارتباط السياق بمقاصدية الخطاب القرآني العامة في كل تفاصيل تفسيره، وقد صبغ هذه العلاقة بصبغة تلازمية جعل فيها السياق خادما للمقاصد الكلية، وتحلى هذا الأثر في النقاط التالية³⁷:
- أهمية السياق في الكشف عن الاستراتيجيات والمقاصد.
- الترابط بين الاستراتيجيات والمقاصد.

- يعد السياق معيار الترجيح الدلالي، قد تفيد الآية معنى لا يتوافق مع السياق؛ فحينها يرجع إلى السياق في الترجيح، وكذلك عند تعارض المعاني.
- يمكن تصنيف المقاصد حسب السياق من حيث: الأهمية والعموم (فما كان منها من ضمن السياق العام دخل في دائرة المقاصد العامة)، والخصوص (وما كان منها في السياق الخاص دخل في المقاصد الخاصة)، والجزئية (أي ما كان منها في السياق الجزئي للآية دخل في المقاصد الجزئية).
- السياق مهم للتفريق بين المعاني والمقاصد، فمن خلال السياق نستطيع التفريق بين ما هو في دائرة المعاني، وما يدخل ضمن دائرة المقاصد.

1.8. المقاصد القرآنية ودورها في تسوير الآيات عند ابن عاشور:

اتبع ابن عاشور منهجية قائمة على تتبع المقصديات داخل نظم القرآن الكريم، فاعتمدت دراسته للقرآن واستراتيجيته الخطائية على تتبع المعاني العامة والخاصة داخل سياقاته، ونظمها في سلك يجمع شملها ويوحد مقصديتها، فقد أشار في مطلع كل سورة من تفسيره إلى استراتيجياتها، وموضوعاتها بالترتيب، ولعل الغاية من وراء ذلك هو وجود المرجعية النظرية التي تؤطر فكر ابن عاشور التفسيري من خلال تبني مجال التفسير المقاصدي.

ويبدو هذا واضحا في تعريفه السورة حيث تتجلى المقاربة التداولية، فيقول معرّفا إياها: "السورة قطعة من القرآن معينه بمبدأ ونهاية لا يتغيران، مسمّاة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر، في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة، ناشئ عن أسباب النزول أو مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة".³⁸

ويضع مفارقة منهجية بين لغة القرآن ولغة البشر فيقول: "وهناك فرق كبير بين طريقة القرآن وطريقة الناس في التأليف، القرآن كتاب هداية يسلك إلى النفوس طريقها، ويتخولها بالموعظة بين الحين والآخر، ولكنه جعل لكل سورة موضوعا غالبا عليها، وسمات بارزة فيها، ويخطئ من يظن أن وحدة الموضوع للسورة تعني أن السورة موضوع مستقل، أو فصل في باب أو بحث في كتاب".³⁹

من فوائد المقاصد الواحدة في السورة؛ مساعدة القارئ في تصور عام تتفرع عنه أفكار جزئية مترابطة تحاول أن تخدم مقصديات عامة، حتى إذا ما قرأ المتلقي النص القرآني استوعب المحاور الموضوعاتية التي تدور في فلكها السورة، لأن الفهم والتدبر في نظر ابن عاشور يقوم على معرفة السلك الذي تنتظم فيه هذه الآيات، والتي تبدو للوهلة الأولى غير مترابطة أو متناقضة، وهي طريقة مثلى للحفظ والاستيعاب والفهم، وابتداء القارئ بالأفكار المحملة عن نص السورة، وهو تهيئة له من أجل الولوج إلى تفصيلاتها اللغوية الدلالية النحوية، البلاغية، والتداولية.⁴⁰

وعلى هذا الأساس؛ فإنّ "التسوير يتحقق به غرض في من حيث جمع الأشكال والنظائر، وإفراد بعض الموضوعات بسور مستقلة، وغرض آخر يعود إلى الإعجاز بالترتيب والنظم والترابط بين الآيات كل سورة على حدة، وغرض ثالث تعليمي هو تيسير الحفظ".⁴¹

تتميز سور القرآن في نظر ابن عاشور بكون كل واحدة منها: "ذات خصوصية، وروح يسري في نواحيها، لا يمكن أن تعد فصولاً أو أبواباً مقسمة منسقة على نمط التأليف التي يؤلفها الناس، ومن أراد أن يفهمها على ذلك، أو أن يفسرها على ذلك؛ فإنه يكون متكلفاً مشتتاً محاولاً أن يخرج بالقرآن عن أسلوبه الخاص الذي هو التنقل، والمراوحة والتحول، وبث العظة السليمة والمبادئ القيمة، إنّ هناك فرقاً بين من يحاول أن يفعل ذلك، ومن يحاول أن يجعل القارئ يلحح الروح الساري، والبيئة المعنوية الخاصة التي تجول فيها السورة دون أن يخرج التنزيل الحكيم عن نسقه، وأسلوبه الذي انفرد به، وكان ذلك من أهم نواحي الإعجاز فيه".⁴²

2.8. تعريف سورة البقرة في التحرير والتنوير:

تعتبر سورة البقرة من أوائل السور التي نزلت في المدينة، واستغرقت زمناً في النزول لطولها، وكثرة مواضيعها، وتعلقها في التشريع، ومواقيت النزول وأسبابه وتدرج في الأحكام والنسخ، ويعد عنوان السورة هو موضوعها الأساسي البارز لارتباطه بمعجزة أدار لها قومها ظهورهم وأنكروها.

يصف ابن عاشور هذه السورة في تقديمه لها بقوله: "هذه سورة مترامية الأطراف، وأساليبها ذات أفنان قد جمعت من وشائج أغراض السور، ما كان مصداقاً لتلقيبها فسطاس القرآن، فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان، وعلى الناظر أن يترقب تفاصيل منها فيما يأتي لنا من تفسيرها".⁴³

وقد سُميت سورة البقرة بهذه التسمية في نظر ابن عاشور تمييزاً لها عن السور "ال ألم" من الحروف المقطعة، "لأنهم كانوا ربما جعلوا تلك الحروف المقطعة أسماء السور الواقعة هي فيها، وعرفوها بها نحو: طه، يس، ص، وكون هذه السورة انفردت بذكر قصة معجزة موسى مع قومه في إحياء الموتى حين أمر نبي إسرائيل بذبح بقرة وضرب المقتول بها ليفضح قاتله." ⁴⁴

وقد ذكر محمد عبد الله دراز أن هذه السورة تحوي خمسة مقاصد هي: "مقصدية العقيدة، والعبادة المعاملات، الأخلاق، والقصص." ⁴⁵

وأما ابن عاشور؛ فقد أشار إلى أن هذه السورة تنقسم من حيث التصور العام، أو المقاصد العامة إلى قسمين: ⁴⁶

- القسم الأول: إثبات سمو هذا الدين على ما سبقه، وعلوّ هديه وأصول تطهيره النفوس.
- القسم الثاني: بيان شرائع هذا الدين لأتباعه، وإصلاح مجتمعهم.

3.8. الاستراتيجيات الخطائية في سورة البقرة وخدمتها لمقاصد القرآن عند ابن عاشور:

تنوعت الأفعال الكلامية التداولية في سورة البقرة "واحتلت الإخباريات المرتبة الأولى من حيث العدد، لأن كثيراً من الآيات في السورة تطرقت لعرض أخبار الأمم السابقة، وقصص الأولين، وحوادث التاريخ وإخبار عن مواقف أخرى، ويليهما في الدرجة الثانية الأفعال الكلامية التوجيهية، وخاصة الأمرية منها، فقد كثرت الأوامر الإلهية فيها مبلغة سائر الأحكام الشرعية، وما تقتضيه الأوامر من وجوب، وندب، وإباحة، وتشريع، ودعاء، ثم إن كثيراً من أفعال القول لها وظيفة حجاجية لتوجيه المتلقي إلى فعل شيء أو تركه." ⁴⁷

وعلى أساس من هذا التصنيف والتنوع والتقسيم؛ قام ابن عاشور بحصر المعاني، والاستراتيجيات التي سبقت خدمة لهذه المعطيات السياقية تحت سقف ما يسمى بالمقاصد القرآنية، ويمكن حصر أهم هذه الاستراتيجيات في مجموعة من النقاط استقرئت من خلال تفسير ابن عاشور لسورة البقرة: ⁴⁸

- تحدي العرب المعاندين تحدياً إجمالياً بحروف التهجي المفتوح بها رمزا، والتي تقتضي استشرافهم لما يرد بعدها، وانتظارهم لبيان مقصده.
- التنويه بعظمة القرآن.

- تصنيف الناس تجاه تلقيهم هذا الكتاب وانتفاعهم بهديه إلى مؤمنين، كفار، منافقين، وأهل الكتاب.
- التصدي لهم بالحجج الدامغة والبراهين البينة.
- فضح المنافقين ووصف أخلاقهم، وردّ مطاعنهم، وإعلان دخائلهم، وتحذيرهم بما يلجئهم إلى الاستكانة، وعدم التطاول.
- دعوة المنصفين إلى عبادة الرب الحق.
- قصة بدء الخلق الأول قبل أن توجد أصنامهم التي يزعمونها.
- التفضّل على الإنسان أن ميّزه على سائر المخلوقات، ومميزته التي تفرّد بها في تعلم ما لم يعلمه أهل الملأ الأعلى.
- قصة بداية بغض الشيطان وعداوته للإنسان ونسله.
- التفضّل على أهل الكتاب لأنهم أهل علم، ومظنة اقتداء العامة بهم.
- الإطناب في تذكيرهم بالنعمة وأيام الله لهم.
- وصف جحودهم لنعمه الجمّة، وانحرافهم عن الصراط السوي انحرافا بلغ بهم حدّ الكفر، وقصة تكوين أمة إسرائيل.
- ذكر أحداثهم مع أنبيائهم بعد موسى إلى أن تلقوا رسالة مُحمّد بالحسد والعداوة.
- بيان أخطائهم التي حالت دون استحقاقهم لحمل رسالة الأنبياء.
- إشراك الأصناف الثلاثة في حسدها لصنف المسلمين، والسخط على الشريعة الجديدة.
- ذكر ما أثير من الخلاف بين اليهود والنصارى وادّعاء كل فريق أنه هو الحق.
- تخصيص أهل الكفر بأنهم أشدّ ظلما، لأنهم منعوا المسلمين من ذكر الله في المسجد الحرام، وسعوا في خرابه وتشابهم مع أهل الكتاب في كرههم للإسلام.
- الانتقال إلى ذكر فضائل المسجد الحرام وبانيه، ودعوته لذريته بالهدى، والاحتراز عن إجابتها في الذين كفروا منهم.
- تعريف الإسلام بأنه ما كان على أساس ملة إبراهيم، وهو التوحيد وأن النصرانية واليهودية انحرقتا عن ملة إبراهيم.

- دعوة الناس إلى الرجوع للحنيفية، ومنها الرجوع إلى استقبال الكعبة، وذكر شعائر الله بمكة.
- تبكيت أهل الكتاب في طعنهم على تحويل القبلة، وأن العناية بتزكية النفوس أجدر من العناية باستقبال الجهات.
- تذكيرهم بنسخ الشرائع لصالح الأمم، وأنه لا يدع في نسخ شريعة التوراة أو الإنجيل بما هو خير منهما.
- العودة إلى محاجة المشركين بالاستدلال بآثار صنعة الله.
- محاجة أهل الشرك في يوم يتبرؤون فيه من قادتهم، وإبطال مزاعم دين الفريقين في محرمات من الأكل.
- ذكر صنف من المشركين قليل لم يظهروا الإسلام ولكنهم أظهروا مودة المسلمين.
- الانتقال إلى قسم التشريعات إجمالاً ثم تفصيلاً.
- الختم بالدعاء المتضمن لخصائص الشريعة، وذلك من جوامع الكلم.
- التذليل بتمجيد الله وصفاته، ورحمته وسماحة الإسلام، وضرب الأمثال.
- أخبار الأمم الماضية ورسولهم، واختلاف الشرائع.

4.8. توظيف الأفعال الكلامية لتوجيه الخطاب وأصناف المخاطبين في سورة البقرة:

تعتبر سورة البقرة من أكثر السور التي تناولت صنوف عديدة من الناس فخطب فيها هؤلاء أو تحدث عنهم، واختلفت أشكال الخطاب، وأفعاله الكلامية بين الوعظ والفضح والوعيد والتهديد والتبشير.

فقسّم ابن عاشور هذه الأصناف التي أوردها الخطاب القرآني في سورة البقرة إلى أربعة أنماط: المؤمنون، الكفار، المنافقون، أهل الكتاب (يهود ونصارى)، وكان هذا التقسيم متأثراً من مدى تلقّيهم للحق، وقبولهم رسالة الإسلام.⁴⁹

1.4.8. الصنف الأول: وصفهم الله بخمس صفات؛ الإيمان بالغيب، إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة والصدقات، الإيمان بالكتب والرسول، اليقين الكامل بالحساب والجزاء؛ ولهذا استحق الهداية والفلاح والرشاد، فكان أن وعدهم الله بالإحسان في الدنيا والآخرة والنصر والجنة، وقد كان

القسم الثاني من السورة هو قسم التشريع موجها لهذه الفئة التي استقر الايمان في نفوسها، فتلقت أوامر الله ونواهيه بالطاعة، ومن رحمته أنه بيّن لها أمور عباداتها ومعاملاتها وأحكامها حتى لا تزيغ قدم، ولتكون شريعة مُجَدَّ على إثر شريعة إبراهيم، وتنسخ ما دونها من الشرائع فلا يأخذ المؤمنون دينهم من غيرهم من الشرائع المحرفة، فتمّ توظيف أفعال الكلام مثل: **الوعظ والتبشير، والثناء، والدعاء والترغيب.**⁵⁰

2.4.8. الصنف الثاني: الكافرون وصفهم القرآن في سورة البقرة بأنهم آيسوا غيرهم من قبول الحق بسبب فساد فطرتهم وأخلاقهم، وقد سماهم القرآن بالكافرين والفاستقين والخاسرين والضالين، حيث تصدى لهم القرآن باستراتيجيات الرد، والمقارعة بالحجج، والجدل، وأيضا بدعوتهم إلى التفكير والاعتبار ممن قبلهم من الأمم، لكنهم أبوا واستكبروا، وغلبت عليهم شقوتهم، فما كان من الخطاب القرآني إلا أن يصف جزاء العناد، والإشراك بالخسران في الدنيا والآخرة وانتظار العذاب في جهنم، من الأفعال الكلامية الموظفة الوعديات مثل: **التخويف، التهديد، الوعيد، الزجر، التحذير، وباقي الإخباريات، والأمريات.**⁵¹

3.4.8. الصنف الثالث: هم المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا للمسلمين العداوة والبغضاء، نشأت هذه الطائفة في المدينة بعد استقرار الإسلام، وتمكّنه بعد غزوة بدر، فقد اضطر نفر من الكبراء أن يتظاهروا باعتناق الدين الجديد، إذ وصفهم القرآن بالنفاق والتلون، ونعت أخلاقهم، ودخل إلى نفوسهم، ووضعهم في نفس دائرة الكفار لما يحملونه من حقد وبغض، وتعنّت للإسلام وأهله، وربما كان الخطاب القرآني يحذر من خطرهم، وكيدهم أكثر من تأكيده على خطر الأصناف الأخرى؛ كونهم مدسوسون في داخل المجتمع الإسلامي، ولذلك كان الخطاب شديدا، وصريحا حتى لا ينخدع المسلمون بظاهريهم، فليس كل من دخل الإسلام فهو مسلم، وقد انبرى الخطاب القرآني يعدد أخلاقهم، وظاهر أحوالهم ليهتدي المسلمون إلى أوصافهم، ولا يغتروا بالظاهر، فوظّف أفعال الكلام كالأمريات، والإخباريات، والتقريبات، وهذا ما يخدم مقصدية إصلاح العقيدة، وتعليم العقد الصحيح، وكذا المواعظ والإنذار، وأيضا سياسة الأمة، وهو في حد ذاته إعجاز؛ لأنه لا يعلم النفوس إلا الله.⁵²

انبتت المقاصد الموجهة إلى الكفار، ومن والاهم في متن الآيات على الجدل والمحاججة، وردّ المغالطات والأباطيل التي اتهم بها الإسلام وأهله؛ فقدّم الخطاب القرآني بين يدي السورة جملة من الحجج والدلائل والبراهين، ومظاهر الوحدةانية الإلهية في شتى سياق السورة موظفا استراتيجيات الحجاج، وأفعاله الكلامية.

ومع أن الخطاب اتخذ شكلا عقلانيا صارما ومتكررا؛ إلا أنه لامس الفطرة الإنسانية في حب الخير واللجوء إلى الله وقت الحاجة، والفاقة والضعف، فحرك القلوب، ودعا إلى النظر، والتوجه إلى ما في الكون من عجائب الخلق وبديع الصنعة فيه، لكي يوقظ الفطرة، وينير البصر والبصائر، وتراوح هذا الخطاب بين عديد من الأفعال الكلامية؛ كالعتاب، والاستمالة، والتنبيه، والعظة من جهة؛ وبين الزجر والتهديد، والاستنكار، والتعجب من غفلة هؤلاء وقسوة قلوبهم، من جهة أخرى.

4.4.8. الصنف في الرابع: شغل الحديث عن أهل الكتاب وخاصة اليهود مساحة معتبرة السورة، وقد سميت بالبقرة إعلاء، وإعظاما لمعجزة موسى مع قومه في ذبح البقرة لإظهار الحق، إلا أنهم تنكروا لها، وغيّروا وحرفوا، وأبوا أن تصيغ قلوبهم إلى طاعة الله ورسوله، ويبدو أن القرآن كان يرسّخ حقيقة في سائر خطابه، وفي سورة البقرة بالأخص؛ تتضمن تجذّر هذه الطبيعة المراوغة، والمتمردة على قبول الحق حتى لو كان من عند الله، وعلى مخالفة الأنبياء ومنهجهم، بل وتحريفهم الكتب السماوية جيلا بعد جيل، فطبيعة اليهود منذ تاريخ ظهورهم إلى يومنا هذا ثابتة المسار، إلا من رحم .

وفي سورة البقرة كشف الخطاب القرآني اللثام عن ملامح هذه الشخصية التي اندمجت في المجتمع الإسلامي الحديث في عهد النبي ﷺ، من خلال فعل الفضح، والتشهير، والوصف، والتقريب، وقد عملوا على أنهم أهل البلد لهم وعليهم ما للمسلمين من حقوق وواجبات مدنية، على أن تتاح لهم حرية ممارسة الشعائر الدينية ما لم يظلموا، وعلى المسلمين دعوتهم بالتي هي أحسن إلى الإسلام ولا إكراه في الدين.

وقد نبّه الخطاب القرآني خاصة في سورة البقرة، باعتبارها أول ما نزل في المدينة من الوحي، فتأسست مقصديتها على ترسيخ العقيدة والدّود عن المؤمنين ورسالتهم، وبناء المجتمع المدني الجديد

وفق قوانين، وأحكام وشرائع تنسخ ما بطل من الموارث الدينية، والاجتماعية؛ نبّه إلى طبيعة هذا الصنف الأخلاقية والدينية، وأزال الغموض عن الكثير من الملابسات في تاريخه مع الأنبياء، والكتب السماوية، وقد درأ الخطاب القرآني عن المسلمين شرّ هؤلاء وادّعاءهم المعرفة، والاختصاص بمحبة الله، ومعرفة الأخبار والشرائع، والمغيبات، بأن ذكّرهم بأخطائهم، وجرائمهم مع الأنبياء.

رسم الخطاب القرآني ملامح شخصية اليهود، من خلال أفعال الكلام الإخبارية والتقريرية؛ في أنّهم كانوا أول كافر به، وكانوا يلبسون الحق بالباطل، وكانوا يأمرّون الناس بالإيمان، وينسون أنفسهم، وكانوا يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، وكانوا يخادعون الذين آمنوا بإظهار الإيمان، فإذا خلوا إلى بعضهم لفظوه، وحدّروا بعضهم من اطلاع المسلمين على ما يعلمونه من أمر النبي، وصحة رسالته، وكانوا يودّون لو يردّون المسلمين كفار حسداً، وكانوا يدّعون أنّهم وحدهم من على الحق، وأعلنوا عداوتهم للجزيل، وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين، بل يتربصون بهم مواطن السوء، وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك في صحة أوامر النبي ﷺ، وكونها من عند بدء كما فعلوا عند تحويل القبلة، وكانوا مصدر إحاء وتوجيه للمنافقين، كما كانوا مصدر تشجيع للمشركين.⁵³

وظاهر من هذه الاستفاضة في الخبر عن بني إسرائيل، وتذكيرهم وتقريعهم وتوبيخهم وعقابهم وزجرهم ووعيدهم وذمهم؛ من أنّ قصد الخطاب القرآني في سورة البقرة؛ هو تبصير المسلمين بأخلاقهم وتاريخهم وحقدهم على الإسلام ونبيه وأتباعه، وكذا تبييسهم من الطمع في إيمانهم، وهم على هذه الجبلّة الملتوية، كما ينتهي بفصل الخطاب في دعواهم أنّهم وحدهم المهتدون، وأنّهم ورثة إبراهيم، وورثة إبراهيم قد انتهت إلى مُجّد المؤمنين به بعدما حرّف اليهود، وبدّلوا، وتلكثوا عن حمل أمانة العقيدة، والخلافة في الأرض بمنهج الله، ونهض بهذا الأمر محمّد والذين معه.

خاتمة:

لقد كان لعلماء التفسير على غرار علماء اللغة باع وصيت في البحث اللغوي والتأصيل له، وإن كان لم يؤخذ بعين الاعتبار، ولا ألحق بنظيره في البحث اللغوي، فعّد من صميم البحث في علوم القرآن واللغة، لأن الغاية لم تكن قائمة على دراسة اللغة؛ وإتّما على دراسة كلام الله الذي

يتوجب لفهمه تطبيق استعمالات وقواعد اللغة، ويبدو أن المحدثين أعادوا النظر في هذا المذهب، فالتفتوا إلى دراسات المفسرين والأصوليين، وحتى الفقهاء، من أجل تصحيح وجهة النظر القائمة على اتهام اللغويين القدماء بالتقصير، والاقتصار على جانب التركيب، والتفكير بمعزل عن السياق والوظيفة.

ويبدو أن صنيع المحدثين في إعادة تجميع وتشكيل صورة النظرية اللغوية العربية، والذي انفتح على مجالات غير لغوية، صحح الكثير من المفاهيم حول التراث العربي اللغوي، فبدلاً من أن نستعير من غيرنا نظريات ومصطلحات، وجب أن نعود إلى التراث دون تجاهل لما يستجد في الساحة اللغوية العلمية الغربية.

- حاولت الدراسة استنطاق بعض الآليات والمفاهيم، وتحررت عن مدى إسهام العلماء القدامى في توظيف المعطيات التداولية من أجل دراسة، وفهم وتأويل الخطاب اللغوي بما في ذلك القرآن كونه أرقى نص لغوي تواصل يفتخر به العرب، وذلك من خلال مدونة التحرير والتنوير.

- استعان ابن عاشور بزاد معرفي لا يستهان به في تحليل وتفسير الخطاب القرآني وتأويل الدلالات داخل هذا النسق.

- جمع ابن عاشور بين المعارف اللغوية والثقافية التي تأتت له في عصره، ليتمكن من التوغل في مقاصد الخطاب القرآني، وتحلية استراتيجياته في التركيب والدلالة.

- اعتنى ابن عاشور بالسياق الذي يحيط بالخطاب القرآني، وحاول مراعاة كل من المتكلم والمخاطب.

- وُفق ابن عاشور في تطبيق نظرية المقاصد في ثنايا التفسير، وتوظيف السياق لتجلية المعنى، وتتبع استراتيجيات الخطاب القرآني.

- توغل في نسق النص القرآني ونظمه، وإجماله، وتفصيله من خلال مفهوم التسوير، والسياق العام، والخاص، فكان تفسيره أشمل وأوعى.

- تضمنت السورة البقرة مجموعة من الأفعال الكلامية التي استوقفت ابن عاشور في تحليله، مثل الأمرات، والتقريرات، والوعديات، والإخباريات، وغيرها مما لا يسعنا ذكره كله، وقد وظّفها في استجلاء المقاصد، وتوضيح المعاني، وتدبر السياق.

المصادر والمراجع:

1. ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، ج 1.
2. بلخير عمر، الخطاب تمثيل للعالم، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1997م.
3. جمال محمود أحمد أبو الحسان، تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير دراسة منهجية نقدية، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1991 م.
4. جيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة مُحمَّد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ت.
5. عاطف فضل، الدرس النحوي في توجيه المعنى في تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ مُحمَّد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الاسلامي المعاصر رؤية معرفية ومنهجية، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، 1981م.
6. عبد الحليم مصطفى وعبد العال الشوربجي، المقصدية والسياق والبعد التداولي في فهم الخطاب القرآني، العدد 25/ ج 9 حولية كلية اللغة العربية بنين بجرجا، جامعه الأزهر، مصر، 2021.
7. عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ط1.
8. عبد الله محمود شحاته، أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1976م.
9. عبد الهادي بن ظافر الشَّهري، إستراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الحديث المتحدة، ط 1.
10. عبد الوهاب يحيي المؤيد، انسجام النص القرآني دراسة نصية من خلال تفسير ابن عاشور التونسي، أطروحة دكتوراه، جامعة الخرطوم، السودان، 2005.
11. علي مُحمَّد مُحمَّد يونس، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، د. ط، د. ت.
12. علي محمود حجي الصراف، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي، مكتبة الآداب، ط1.

13. عيسى بوعكاز، مقال: مقاصد القرآن الكريم ومحاوره عند المتقدمين مجلة الإحياء، كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة 1، ع20، 2017.
14. ماهر حسين حصوة، مقال مقاصد القرآن في بناء الفكري العمراني، إسلامية المعرفة مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، ع89، 2017.
15. مُجَد علي التهانوي، كشف اصطلاحات الفنون، تح: لطفي عبد البديع، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ط3، ج2.
16. مُجَد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية لونجمان، القاهرة 1966.
17. مُجَد المُدني، المجتمع المدني كما تنظمه سورة النساء، الدار المصرية للنشر والتوزيع، ط1990.
18. مُجَد مدور، الأفعال الكلامية في القرآن الكريم سورة البقرة -دراسة تداولية-، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر بباتنة، الجزائر، 2014.
19. محمود أحمد نخله، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2002 م.
20. مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول في الفكر المعاصر والتراث العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، 2003/2004.
21. مسعود صحراوي، المنحى الوظيفي في التراث اللغوي العربي، مجلة الدراسات اللغوية، الجزائر، ط2003 م.
22. موشلار وآن ريبول، القاموس الوسوعي للتداولية، تر: م من الأساتذة، دار سيماترا.
23. نشوان عبده خالد قائد، ورضوان جمال الأطرش، السياق القرآني وأثره في خدمة التفسير المقاصدي عند ابن عاشور، مقال مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، سنة 19، العدد 73، 2013 م.
24. نشوان عبده رضوان، السياق القرآني وأثره في خدمة التفسير المقاصدي عند ابن عاشور، مقال، مجلة إسلامية المعرفة، س9، ع73، 2013.

25. وصفي عاشور أبو زيد، التفسير المقاصدي لسور القرآن الكريم، مقال نشر في مؤتمر: فهم القرآن بين النص والواقع، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، الجزائر، ديسمبر 2013.

الهوامش:

- 1 . ينظر: جمال محمود أحمد أبو الحسان، تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير، دراسة منهجية نقدية، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1991 م، ص 5 وص 6.
- 2 . لطفي فكري محمد الجودي، جمالية الخطاب في النص القرآني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، ط1، ص 96.
- 3 . ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، ج 1، ص 11.
- 4 . نفس المصدر، ج 1، ص 11 وص 12.
- 5 . ينظر: وصفي عاشور أبو زيد، التفسير المقاصدي لسور القرآن الكريم، مقال نشر في مؤتمر: فهم القرآن بين النص والواقع، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، الجزائر، ديسمبر 2013 ص 07.
- 6 . ينظر نفس المرجع، ص 29.
- 7 . ينظر: محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تح: لطفي عبد البديع، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ط3، ج2، ص 291.
- 8 . نشوان عبده خالد قائد، ورضوان جمال الأطرش، السياق القرآني وأثره في خدمة التفسير المقاصدي عند ابن عاشور، مقال مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، سنة 19، العدد 73، 2013 م، ص 25 وص 26.
- 9 . ينظر: ماهر حسين حصوة، مقال مقاصد القرآن في بناء الفكري العمراني، إسلامية المعرفة مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، ع89، 2017، ص 163 وما بعدها.
- 10 . مسعود صحراوي، المنحى الوظيفي في التراث اللغوي العربي، مجلة الدراسات اللغوية، الجزائر، ط2003، ص 94.
- 11 . ينظر: ابن عاشور، ت. ن، ج1، ص 40.
- 12 . نفس المصدر، ج1، ص 39 وص 40.
- 13 . جيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ت، ص 08.
- 14 . محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية لونغمان، القاهرة 1966، ص 76.
- 15 . ينظر: علي محمود حجي الصراف، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي، مكتبة الآداب، ط1، ص 04 وص 05.
- 16 . ينظر: علي محمد يونس، ص 138، وأيضا: موشلار وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر: م من الأساتذة، دار سيمانترا، ص 26.
- 17 . ينظر: محمود أحمد نخله، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2002 م، ص 85.

18. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار التنوير للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2008، 1، ص 54 وص55.
19. علي محمود حجي الصراف، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص11.
20. بلخير عمر، الخطاب تمثيل للعالم، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1997م، ص150.
21. ينظر: علي حجي الصراف، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص31.
22. ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص75.
23. ينظر: مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول في الفكر المعاصر والتراث العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، 2004/2003، ص80.
24. ينظر: نفس المرجع، ص93 وما بعدها.
25. علي محمد يونس محمد، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، ط2، ص164.
26. ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاني الحديث المتحدة، ط 01، ص45.
27. ينظر: نفس المرجع، ص46.
28. علي محمد يونس، المعنى وظلال المعنى، ص156.
29. ينظر: عاطف فضل، الدرس النحوي في توجيه المعنى في تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، بحوث المؤتمر الدولي حول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الاسلامي المعاصر رؤية معرفية ومنهجية، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، 1981م، ص323.
30. ابن عاشور، ت. ن، ج 1، ص 08.
31. ينظر: نفس المصدر، ج 1، ص 08 وما بعدها.
32. عبد الحليم مصطفى وعبد العال الشوربجي، المقصدية والسياق والبعد التداولي في فهم الخطاب القرآني، العدد 25/ ج 9 حولية كلية اللغة العربية بنين بجرجا، جامعه الأزهر، مصر، 2021 ص 8875.
33. عيسى بوعكاز، مقال: مقاصد القرآن الكريم ومحاوره عند المتقدمين مجلة الإحياء، كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة 1، ع20، 2017، ص85.
34. ينظر: نشوان عبده رضوان، السياق القرآني وأثره في خدمة التفسير المقاصدي عند ابن عاشور، مقال مجلة إسلامية المعرفة، س9، ع73، 2013، ص29 وما بعدها.
35. ينظر: نفس المرجع.
36. ينظر: نفس المرجع، ص31.
37. ينظر: نشوان عبده، مقال السياق القرآني وأثره في خدمة التفسير المقاصدي عند ابن عاشور، ص37 وص38.
38. ابن عاشور، ت. ن، ج 1، ص 83.
39. عبد الله محمود شحاته، أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1976م، ص06.
40. ينظر: ابن عاشور، ت. ن، ج 1، ص 86 وما بعدها.

- 41 . عبد الوهاب يحيى المؤيد، انسجام النص القرآني دراسة نصية من خلال تفسير ابن عاشور التونسي، أطروحة دكتوراه، جامعة الخرطوم، السودان، 2005، ص 13.
- 42 . محمد المدني، المجتمع المدني كما تنظمه سورة النساء، الدار المصرية للنشر والتوزيع، ط 1990. ص 08.
- 43 . ابن عاشور، ت.ن، ج 1، ص 203.
- 44 . نفس المصدر، ص 203.
- 45 . عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ط 1، ص 163.
- 46 . ابن عاشور، ت.ن، ج 1، ص 201.
- 47 . محمد مدور، الأفعال الكلامية في القرآن الكريم سورة البقرة -دراسة تداولية-، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر بباتنة، الجزائر، 2014، ص 353.
- 48 . ينظر: ابن عاشور، ت.ن، ج 1، ص 203 وما بعدها.
- 49 . ينظر: نفس المصدر، ج 1، ص 204.
- 50 . عبد الله محمود شحاته، أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، ص 15. وينظر ت.ن، ج 01، ص 203 وما بعدها.
- 51 . ينظر: ابن عاشور، ت.ن، ج 1، ص 205.
- 52 . ينظر: نفس المصدر، ج 01، ص 205، وينظر عبد الله شحاته، أهداف كل سورة ومقاصدها، ص 16.
- 53 . نفس المرجع، ص 18.

